تقديم الكتاب

بقلم

العالم الجليل الدكتور مازن المبارك

أستاذ العربية في كلية الآداب بجامعة دمشق

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ليخرج الناس من الظلمات إلى النور . ويهديهم صراطاً مستقيملاً .

وصلى الله على سيدنا محمد النَّبيِّ الأُمّيِّ المبعوث رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً .

وبعد : فهذا كتاب « إعلام السلائلين عن كتب سيد المرسلين » للعالم المؤرخ الدمشقي محمد بن طولون في طبعته الجديدة التي قام بتحقيقها الأستاذ محمود الأرناؤوط ، وراجعها والده المحدّث المحقق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط .

أما كتاب « إعلام السائلين » فهو ـ إن شئت ـ كتاب تاريخ ، وإن شئت كتاب أدب ، وإن شئت كتاب لغة ، وإن شئت كتاب دعوة .

أما كونه كتاب تاريخ فلأنه جمع الرسائل النبوية الشريفة، وهي وثائق تاريخية، عرفنا ممليها ﷺ وعرفنا كاتبيها، وعرفنا حامليها، وعرفنا المرسلة إليهم بأسمائهم وزمنهم وأمكنتهم. وهو كتاب تاريخ لأنه صورة لبزوغ فجر الدعوة الإسلامية وشروق شمسها، حين انطلق سفراء النبيّ ﷺ بأشعتها الهادية متجاوزين حدود الأوطان والأقوام، ليجوبوا الأرض، داعين إلى الله، هادين إلى الحق.

وأما كونه كتاب أدب فلأنه ﷺ أوتي جوامع الكلم، فجاءت رسائله في أوجز عبارة وأدق لفظ وأوضح بيان، وكانت صورة من الأسلوب النبوي الكريم الذي لا حشو فيه ولا فضول، بل قصدٌ إلى المعنى من أقصر سبيل.

وأما كونه كتاب لغة، فلأن في تلك الرسائل النبوية الشريفة ألفاظاً جاءت في مواضعها مشتقة من أصولها، مصوغة على أوزانها، مقدرة في ذلك كله تقديراً ممن هو أفصح من نطق بالضاد، ثم هي مستعملة في معان كانت لها إذ ذاك. ونحن في حاجة إلى نصوص موثقة تحدد معاني الألفاظ في عصور محددة، لنعرف ما تبدل معناه وما تطورت دلالته.

وأما كونه كتاب دعوة، فلأن مملي الرسائل ﷺ سيد الرُّسل وإمام الدُّعاة، صدع بما أمر، ودعا إلى ربه على بصيرة، ودعا بالحكمة والموعظة الحسنة ـ وللدعاة في رسول الله أسوة حسنة ـ

بعث السفراء برسائله، فكان حكيماً في اختيارهم، وخاطب جبابرة الأرض من أكاسرة وقياصرة وملوك وزعماء، فلم يجامل، ولم يضعف، ولم يعنف، وخاطب الناس على قدر عقولهم، فأدى الرسالة، وبلّغ الأمانة، ونصح الأمة، وما كان عليه إلاّ البلاغ ﷺ .

وأما المؤلف ابن طولون - رحمه الله - فكم وفر على الباحثين من وقت وجهد في البحث والتنقيب حين جمع لهم في هذا الكتاب ما تفرق من الرسائل النبوية في بطون كتب السيرة والتاريخ.

وأما المحقق فقد بذل جهداً لا ينكر في هذه الطبعة الجديدة، وزودها بمقدمة عرض فيها حياة الرسول الكريم ﷺ وتحدث عن أميته ورسله وكتّابه ومترجميه وخاتمه، كما تحدث عن ابن طولون وآثاره، ثم وضع الكتاب بين يدي والده - المعروف بطول اشتغاله في تحقيق مصنفات الحديث النبوي وما يتصل به - ليراجع ويعلق، فكان للقارىء من وراء ذلك كله هذا الكتاب القيم.

على أننا مع تقديرنا لجهد المحقق في إخراج النص، وضبط ألفاظه، والتعريف بأعلامه، والعزو إلى المصادر والمراجع لا نكتم ما كنا نتمناه ونحن نقرأ الكتاب، لقد رأينا المحقق يشرح بعض الألفاظ الغريبة ويهمل بعضها الآخر، فتمنينا لو أنه وقف عند ما أهمله منها فشرحه وذكر معانيه، ليتضح المعنى المراد للقارىء، ففي الرسائل ألفاظ لم تعد اليوم مستعملة أو مألوفة.

ورأينا المحقق يكتفي في تعريف الأماكن بما ذكره ياقوت عنها في «معجمه» فتمنينا لو أنه لم يكتف بتعريف ياقوت للأماكن التي

ورد ذكرها، إذ لم تعد تعريفات ياقوت كافية ولا مقنعة، فالقارىء اليوم لا يكفيه لأن نقول له: إن «الحرَّة» بين المدينة والشام، وإن «البلقاء» كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى. وتمنينا لو أن المحقق ترجم لبعض الأعلام عند ورودهم أول مرة، ثم أحال في سائر المرات على موضع الترجمة. ففي الكتاب أعلام ترجم المحقق لهم في مكان سبق أن ذكروا قبله غير مرة. كما أن فيه تكرراً لتراجم بعض الأعلام كالمغيرة بن شعبة، والإمام علي. ورأيناه يكتفي في شرح أسماء الله الحسنى بالإحالة على كتاب «جامع الأصول» لابن الأثير، فتمنينا لو أنه زاد فذكر كتاباً ضخماً أفرده مؤلفه لموضوعه وهو كتاب «اشتقاق أسماء الله تعالى المستنبطة من التنزيل وما فيها من المصادر واللغات والتأويل» لأبي القاسم الزجاجي، وكتاب أستاذه الزجاج «تفسير أسماء الله الحسنى» وكتاب «تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة.

وأما آراء المحقق وأحكامه - وهي كثيرة في المقدمة وفي الحواشي - وخاصة منها ما يتعلق بتقويم الكتب والحكم عليها، فقد يوافقه القارىء فيها وقد يخالفه، وهي على كل حال بنت بحثه واجتهاده. وحسبه أنه اجتهد، وحسبه أنه أحيا نصاً، وبعث تاريخاً ونشر علماً، فجزا الله المحقق والمراجع خيراً ونفع بهما، ورحم ابن طولون، وصلى الله على سيد المرسلين والحمد لله رب العالمين.

دمشق في الخامس عشر من ذي الحجة ١٤٠٦ هـ

الموافق ٢٠/ آب/ ١٩٨٦ م.

الدكتور مازن المبارك

* * *